" المثقف اللامنتمي اجتماعيا وتجلياته في الخصوصية المجتمعية الجزائرية" – نظرة نقدية – حالة الجزائر منذ إنتفاضة أكتوبر 1988

أ/ سماح بلعيد
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة قسنطينة

الملخّــص:

ينطلق هذا الطرح من دراسة علاقة الفكر بالواقع ، علاقة المعرفة بالمجتمع ، علاقة المثقف بالواقع الإجتماعي ... في الخصوصية المجتمعية الجزائرية ... أي علاقة ؟ نستقرأها منذ انتفاضة اكتوبر 1988 وجذورها الممتدة إلى سؤال الناس للثقافة وأهلها ماذا قدمتم ولماذا تأخرتم ؟ ماذا غيرتم وماذا لم تغيرو ؟ بإمكان المرء أن يلاحظ أن المجتمع الجزائري قبل وبعد الإنتفاضة عاش يتيما ، عاش بدون سند معنوي ... فقد كانت تحدث له أشياء وأشياء .. ولكن مثقفوه لم يحدثو له أي شيء في مستوى برنامج معين ، فكانت صيغة المثقف اللامنتمي إجتماعيا، أصدق وصف للوضع القائم ، وسط وضع اجتماعي رث يواجه حالة من التمزق والتشرذم في كل معانيه وتجلياته . إننا يحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى ، الى مثقف منتمي اجتماعي مزروع ي أحشائه ما يرغبه المثقف الناقد – حكيم المدينة – من بروق ورعود ومتفجرات في هذا الزمن ، زمن ثقافة القهر ، ثقافة الصمت ....

Résumé:

Demandez à un point de départ de cette étude, la relation de la pensée à la réalité, la relation entre société de la connaissance, la relation instruits de la réalité sociale ... Communauté algérienne dans l'intimité ... Toute relation? Lire depuis la révolution d'Octobre 1988, leurs racines à la question des gens de culture et de son peuple ce que vous faites? Quel conseil et demandez-leur pourquoi ne pas changer? On peut noter que la société algérienne, avant et après la révolution, vivait un orphelin, a vécu sans le soutien moral ... Il devenait de ses choses et les choses .. Mais les intellectuels n'ont rien dans le niveau d'un programme particulier, une formule a été cultivée isolés socialement, croient une description du développement de la vie dans le centre d'une situation sociale que le misérable état de désintégration dans l'ensemble de ses significations. Nous avons encore besoin aujourd'hui, plus que jamais, à la culture d'appartenance sociale implantés dans le ventre ce qui est désiré par l'intellectuel critique - Ville sage - à partir des éclairs et des tonnerres, et des explosifs en ce moment, le temps de la culture de l'oppression, la culture du silence....

تمهيـــد :

ينطلق هذا الطرح من دراسة علاقة الفكر بالواقع ، علاقة الثقافة بالمجتمع في تاريخ الفكر الإجتماعي ،ويعد الفكر سوسيولوجيا أداة من أدوات الحياة الإجتماعية ، التي يتعامل بها الأفراد المنتمون إلى بنية اجتماعية معينة ، ويتحاورون و يصيغون على أساسها مصالحهم المشتركة و يتبادلون بواسطته القيم و الأعراف ، و يعبرون به عن رؤاهم المختلفة للواقع .

-1 المثقف بين التموقع و التمشكل في الخصوصية الغربية ودلالته الإبستيمولوجية في الخصوصية المجتمعية الجزائرية.

إن المحاولات الأولى لفهم الواقع الإجتماعي بإطاره العام و لدور المثقف في تفسيره و تغييره ، قد ظهرت مع عصر الأنوار فإثر التغيرات التي طرأت على البنية الإجتماعية الإقطاعية و طرح المشروع البورجوازي بديلا تاريخيا في القرن الثامن عشر ، ثم رفض الفكر الكنيسي، برزت الدعوة لإستخدام العقل ونشر المعرفة ، ونجد ذلك واضحا في قول الفيلسوف الفرنسي بييربايل (1647–1706) :" إن قدم الأخطاء لا يصحح من حالها ، و لايجعلها أفضل مما عليه ، فلنقم بالأعمال العقلية الكافية للتخلص من فضلات الماضي و سخافاته الساذجة " [1].

كوندرسيه (1743–1794) مثلا يرى أسبقية العقل على الوجود و المعرفة عنده ظاهرة اجتماعية تكتسب مصداقيتها من خلال ملاءمتها للتطور الإجتماعي كما ينظر إلى التقدم على صعيد الفكر و المعرفة و العلوم من جهة و التقدم على صعيد المجتمع البشري من جهة أخرى على أنهما خطوة واحدة "[2]. في سياق آخر،كان سان سيمون زعيم المدرسة الفرنسية الوضعية، قد وحد العقل و الوجود في كيان واحد في عملية التقدم الإجتماعي ،" وقال بوجود توافق في كل العصور ولدى جميع الشعوب ما بين المؤسسات الإجتماعية و الأفكار "[3] ،ففي النظم الدينية مثلا تسود المعرفة اللاهوتية أما في النظم الصناعية المتطورة فتسود فيها المعرفة التقنية. وتأثر أوغست كونت بسان سيمون ، في ربط النسق المعرفي بالنسق الإجتماعي وكان قانون المراحل الثلاث الذي اقترحه قائما على هذا المبدأ و الأفكار في نظره هي التي تحكم و تقلب العالم حيث أن الأزمة الكبيرة

التي اجتاحت المجتمعات التي عاصرها هي أزمة عائدة بالدرجة الأولى إلى الفوضى الفكرية و في رأيه لو أمكن إتحاد العقول في وحدة مبادئ ، فسوف ينجم عن ذلك بالضرورة مؤسسات ملائمة دون الحاجة إلى هزات خطيرة "،[4]إذن فتطور الإنسانية تابع لتطور المفاهيم العقلية و هذا هو دور الحكماء و الكهنة باعتبار أن لكل نظام إجتماعي منظريه "[5]، مقابل أولوية المعرفة عند كونت ، يطرح دوركايم أولوية الواقع الإجتماعي ،" فالمعرفة عنده معرفة إجتماعية و المجتمع عنده هو (الكل) يفرض على الأفراد أساليب تفكيرهم و عملهم ، وعلى هذا تقع الظاهرة الإجتماعية خارج الفرد و قد زودت بقوة قهر تمكنها من فرض نفسها عليه "[6].

والفروق الثقافية برأي دوركايم ناجمة عن إرتباط المواضيع الثقافية بأصولها الإجتماعية و إن قبول أو رفض فكرة ما تتم على أساس اتساقها مع قيم ومعتقدات الثقافة المجتمعية "[7]، فالوعي المجتمعي مشروط بالبنية الإجتماعية و بتوزع الجماعات و بالعلاقات التي يفرضها هذا التوزيع عليها و على أفرادها "[8]

أما رواد المادية التاريخية في رؤيتهم لقضية الفكر / المعرفة في علاقتها بالمجتمع فإن المعرفة في نظرهم ، هي معرفة تاريخية أولا ، وقد أضحى معروفا التفسير الذي قدمه الإتجاه المادي التاريخي لعلاقة الوجود الإجتماعي بالوعي الإجتماعي و أسبقية الأول على الثاني وأن انتاج الأفكار مرتبط بالنشاط المادي للبشر ، فالوعي مشروط بدرجة تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ،لذا لا يمكن للوعي أن يكون شيئا آخر سوى الوجود الواعي "[9]. فالأيديولوجيا وهي أبرز أشكال الوعي الإجتماعي تعد عند الماركسيين مجموع آراء و أفكار تنعكس فيها جملة العلاقات الإجتماعية ووجهات نظر مختلف مصالح الطبقات و لا يمكن لها أن توجد في مجتمع لا طبقي ، فالأيديولوجيا هي بالضرورة ، أيديولوجيا طبقية في مجتمع طبقي ومن ثم فالبناء الفوقي ليس إلا إنعكاس مرآتي للبناء التحتي الذي يتحكم فيه العامل الإقتصادي .

فلفريد بارتيو ينتقد الماركسيين و يعترف بوجود العوامل غير الرشيدة " العوامل اللاعقلانية التي تتحكم بالجماهير و تدفعها للثورة ، فهذه العوامل غير الرشيدة و الغرائزية عوامل هامة في التغيير الإجتماعي الذي يجب أن لا يستند إلى الثورة الإقتصادية فقط "[10]. وفي سياق آخر يعترف بليخانوف ، أن تطور المجتمع لا يتم عبر

الإقتصاد وحده بل يتم على مستوى البناء الفوقي (عالم الأفكار) ، إذ أن الإقتصاد لا يصنع ذاته مطلقا بل يفعل دوما بتوسط البناء الفوقي و لكي يكون للفكرة دورها المجتمعي التغييري فيجب أن تكون فكرة تمسك بالمجرى الواقعي للتاريخ و تعبرعنه ، وعندها تغدوا الفكرة قوة لا تقهر و إلا فسوف تكون مصدر خيبة أمل ، و انحطاط عقلي ومعنوي "[11].

اعتبار الأفكار قوة لا تقهر هو فعل اجتماعي مسؤول وهو مهمة المثقفين الذين يمارسون دورهم المجتمعي المرهون بجملة إنتماءات منها إنتماءاتهم الإجتماعية التي هي عند الماركسيين إنتماءات طبقية محددة بالتغيرات الإقتصادية و يبرز ذلك جليا في استنخدام لينين لمصطلحي " الأيديولوجيا البورجوازية و الأيديولوجيا البروليتارية".

وفي مقابل الإتجاه المادي الذي أقره الماركسيين ، يطرح الإتجاه المثالي أسبقية الفكر والثقافة على الوجود ، بل يجردهما من محدداتهما الإجتماعية ، مما دعى إلى ضرورة إنشاء علم الإجتماع المعرفة . وتعد آراء كارل مانهايم من أبرز منظريه حيث صاغ نظرية خاصة به حول العلاقة الجدلية بين الواقع من جهة و اليوتوبيا و الأيديولوجيا ، باعتبارهما نمطي تفكير مشوهين للواقع القائم من جهة ثانية . جون بول سارتر في كتابه المعروف " دفاع عن المثقفين " عرف المثقف " بأنه انسان يتدخل و يدس أنفه في ما لا يعنيه " و أن المثقفين هم الذين قامو بدور لم يكلفهم به أحد "[12].

نظرا لهذه الإهتمامات وغيرها التي يوليها الفكر السوسيولوجي الغربي لقضية علاقة الفكر بالواقع ، علاقة الثقافة بالمجتمع ، آثرنا نحن إمعان النظر في هذه المسألة في إطار مساءلة إبستيمولوجية للخصوصية المجتمعية الجزائرية – نموذجا – لما يتمتع به هذا المجتمع من خصوصية ثقافية وتاريخية ، فقد خلق الإختراق الأوروبي للمجتمع العربي في القرن الثامن عشر ، جملة تشوهات بنيوية أفرزت جملة تشوهات فكرية وثقافية ، وبما أننا نفترض أن الأنساق المعرفية المختلفة مرتبطة بالبنية الإجتماعية التي تنشأ و تنمو في ظلها وبما أن الإنتماء الثقافي للفرد يتمايز بتمايز إنتماءه الطبقي ، فكيف يمكن النظر في التكوين الإجتماعي – الطبقي – للمثقفين الجزائريين ضمن الخصوصية البنيوية المعرفية – الجزائرية – و ماهي طبيعة التشوهات الفكرية التي رافقت هذا التكوين منذ بداية ظهور المثقف العربي – الجزائري – على الساحة العربية .

هل إستطاع المثقفون الجزائريون في الوضع الراهن ، تشكيل انتلجانسيا بالمعنى الدقيق للكلمة كتشكل ذا فعالية اجتماعية أم هم مجرد مجموعة مثقفين لا يربطهم نظام ولا تجمعهم وحدة ولا يتمتعون بميزة الفعالية الإجتماعية و بالتالي لا ينشغلون بالهم المجتمعي العام, ثم كيف انعكست مظاهر التشوه البنيوي في المجتمع على مسألة الإنتماء الإجتماعي للمثقف فيه ؟ وبالتالي هل يمكن الحديث عن مثقف– جزائري – منتمي في البنية الإجتماعية الجزائرية ؟ فإذا كان كذلك فما هو الشكل الذي يتخذه الإنتماء ؟ هل هو إنتماء أيديولوجي أم طبقي أم قومي .....أم ، ثم ماهو الوجه الذي يتخذه إنتماء المثقف الجزائري في المرحلة الراهنة ، مرحلة العولمة التي تعد من أخطر المراحل التاريخية بالنسبة للمجتمعات العربية التابعة للنظام العالمي الجديد إذ كيف يمكن المحافظة على خصوصية ثقافية جزائرية – صافية ونقية - أمام الشكل الجديد للإختراق الغربي أو لتأثيرات العولمة بشكل عام . إن المقاربة التي نقدمها هي محاولة للكشف والإجابة عن الدلالة الإبستيمولوجية لحضور مثقف لا منتمي إجتماعيا ولتكن إنتفاضة أكتوبر 88 مقياسا تاريخيا لذلك ، في الخصوصية الجزائرية .

2 ثقافة منتصرة أم ثقافة مقهورة /المثقف و المجتمع بين القطيعة و التواصل في الخصوصية المجتمعية الجزائرية منذ انتفاضة أكتوبر 1988....

تمثل انتفاضة أكتوبر 1988 ، اتجاه ثقيل و ديناميكية مفارقة و مسار تاريخي حصيف و صعب في تاريخ الجزائر الوطنية المعاصرة ، خصوصا إذا انتبهنا إلى تشابك و تعقد هذا الفعل المجتمعي – الإنتفاضة – ومن جهة أخرى أنه حالة خاصة ينفرد بها الواقع الجزائري – دون سواه. لقد اعتمدنا انتفاضة أكتوبر1988 ، كمقياس تاريخي أساسي لتحليل حالة البؤس المحقق في الخصوصية المجتمعية الجزائرية –تنمويا – و إشكالية العزلة المطبقة على النخبة المثقفة –مؤسسيا – مع الوضعية السائدة . وهذا حدث عارض يحمل من المعاني و الدلالات ، ما يجدر بنا التعرض له لفهم بعض أبعاده السوسيولوجية . إن النظر إلى تلك الثروة النفطية التي رافقتها عمليات تحديث خاصة في الأقطار العربية النفطية ، لكنها لم تقترن بتنمية عربية حقيقية، تنهض بالإنسان العربي ماديا و معنويا ، إذ أن حصاد الحقبة النفطية على الجزائر وباقي البلدان العربية لم تكن مرضية بأى حال فلماذا يا ترى."[13]

لا مندوحة أن التنمية الإجتماعية ، ليست تعبيرا عن حقيقة بنائية ومؤسسية فحسب ، ولكنها أيضا مجموعة قيم واتجاهات وأفكار تشجع على الممارسة الفاعلة للسياسات التنموية ، إذ العبرة في الطفرات التنموية التي خبرتها مجتمعات غير عربية ، ليس في مجرد وجود إجراءات ومؤسسات و لوائح وإنما توطين ذهنيات وترسيخ عقليات . إن الأمر يقتضى إذن وجود ثقافة تنموية ،إذ أن النسق الثقافي يساعد وينمي الممارسة بينما يتسبب غيابه في عرقلتها وتثبيطها وبالنسبة للجزائر قد أخفقت كثيرا في هذا الجانب ، بحيث أثبتت حينا من الدهر في لوائح الإقتصاديات العالمية ، مفهوما يقول "أن الإقتصاد السياسي في الجزائر لا يشتغل كثيرا بالثقافة" وما تحمله من مشروع.

فإذا كان من الممكن أن تكون النخبة المثقفة أداة الحزب – القيادة الوطنية – لتوجيه و تعبئة الجهود السياسية والجماهيرية في تحقيق تنمية اشتراكية ناجحة ، و من ثم تأصيل و تعميق قسمات الفكر الإشتراكي في وجدان الخصوصية المجتمعية الجزائرية ، لم يحدث هذا عندنا . وأصبحت حالة الإنسحاب والتردد والحيرة لحفنة المثقفين المتعاطفين هي الماركة المسجلة في تاريخ الحركة الثقافية وإحداث خط فاصل بين الثورة الاشتراكية و الثورة الثقافية و الحل إذن أن يترك للقيادة السياسية النافذة مسألة متابعة التحول الإجتماعي الجاري ، ومن ثم تحليل النظرية الإشتراكية و إيصالها للجماهير .

انعدام وسائط التعبير الرمزي ، فكري وأيديولوجي وعدم حضور قنوات تمرير الثورة الإشتراكية إلى الجماهير ، يدل على أن المسار التنموي أصبح محفوفا بالمخاطر يناقض مصلحة المثقفين الوطنيين بل و المصلحة الوطنية المجتمعية في المدى البعيد. ذلك أن عدم انخراط المثقف في نسيج هذا التحول يمكن أن ينحدر إلى إعاقة المسيرة التنموية بدلا من دفعها .هكذا فإن واقع الحال في الجزائر ، يقطع بوجود –مجاعة فكرية– خانقة تلقي بظلال كئيبة على مستقبل الجزائر المعاصرة، الأمر الذي جعل الثورة الاشتراكية تدور في فراغ أيديولوجي و طبع نشاطها العشوائية في اتخاذ القرارات و كذلك على مستوى التطبيق ظهرت مساوئ كبيرة في هذا الجانب . إن كل لحظة من التأخير لتأسيس نسق فكري خارج قليلا أو كثيرا عن سلطة الدولة يزيد تلقائيا في مؤشر التكلفة لخدمة التنمية المجتمعية الجزائرية و تلك نقطة مهمة في– **برنامج اغتيال / إغتصاب المثقفين** – جعل منهم نسق مائع و جهاز تسيير فوقفوا مكتوفي الأيدي أمام الوضعية المزرية التي آل

إليها النظام الاجتماعي بوجه عام نتيجة معتقد خاطئ يقول :إن الوعي الجماهيري يمكن أن يتفهم الضرورة الثورية والنظرية الإشتراكية و يهتدي إليها ، و أنه لا ثقافة لجائع . لقد أصبح القياديون بهذه النظرة الضيقة و في كل الأقطار العربية ، يرون أنفسهم أسمى من المثقفين و ينظرون إليهم في ازدراء لأن خطاباتهم السفسطائية غير مطلوبة خصوصا ما يتعلق بمعتقدهم "الإثارة الفكرية يجب أن تكون البناء التحتي للإثارة الإقتصادية ".

ملاحظة الواقع واستقراء التاريخ الإنساني يكشف أن عملية الصراع لا نهاية له بين الأفراد المبدعين (créative individials) من جهة و بين الظروف المحيطة بهم من جهة ثانية" [14] ، كما أنه من الصعب أن نجد نهضة إنسانية قد قامت دون مشاركة المثقفين إذ يرى ماوتسي تونغ أنه " بدون مشاركة المثقفينة ، يكون النصر في الثورة مستحيلا " و يضيف أنه يجب أن يكون لدينا أيضا جيش ثقافي لأن هذا الجيش ضروري جدا لتوحيد صفوفنا و هزيمة العدو " [15] .

فيدال كاسترو ذلك الزعيم التاريخي كان متجاسرا على القول بأن الثورة من صنع المثقفين و الجماهير التي تثق بهم و ليس من صنع حركة العمال والسياسيين. و قد كتب ألفن غولدنر عالم الثقافة " يجب علينا دراسة هذه الأجيال الجديدة من المثقفين في العالم كأدوات حسية واقعية للتحول التاريخي لننسى الماركسية الفكتورية ما عدا الأوضاع التي نحتاج فيها إليها و لنقرأ لينين من جديد و روزا لوكسمبورغ أيضا "[16]. أما بالنسبة للوضع في الجزائر لم يقدر المثقف أن يعبر عن مشروعه و أن يقوم بدوره القيادي الذي ينتظر منه، لأن حرية التعبير مقيدة و الديمقراطية غائبة و لو وجدت الحرية و الديمقراطية لكان صوت المثقف العربي – الجزائري مدويا "[17].

هزال النسق الثقافي و الفكري وعدم مباركة نشاطه في خلق استعداد إجتماعي لتقبل الثورة الاشتراكية يعبر على أن الولادة المفترضة لأي سياق في المستقبل القريب ينتج فيه الفرد ذاته و حياته و إبداعاته وآراءه وتصوراته ، سوف لن تكون إلا ولادة عنيفة و دموية و هكذا كانت انتفاضة أكتوبر 1988 في الجزائر حدثا صارخا يعبر عن حاجة التجارب الثورية التنموية إلى النقد الذاتي و المراجعة الدائمين و هو عمل النخبة المثقفة .

هي مفارقة تاريخية تنعي نعيا حادا إخفاقات الماضي و منظومته العاهرة (الانتهازية ، غياب الوعي المدني ، ضعف الحماس للنفع العام ، نبذ عقلية الجهد ،

ممارسة الإتكالية ، ثقافة الصمت / اللاعلاقة / اللاأدري ، كل شيء على أحسن ما يرام ،فعوضا أن تفكر القيادة الوطنية اختيار ثقافة النهوض بالإعتماد على الذات فقد اختارت ثقافة الإستنهاض (من قبل الغير) و بالتالي النزول بالإقتصاد الجزائري إلى مجرد تلبية رغبات الأفراد و حاجاتهم المادية " [18] هكذا قصر الإقتصاد الجزائري رسالته على الجانب المادي من طبائع البشر ، و لم يمس أو يتطرق إلى الجانب الآخر ، جانب المعنويات و القيم و المثل و ..، فمع أن رغيف العيش مهم إلا أن المثقف الجزائري لا يعيش ليأكل فقط ... فقد يقبل طائعا أن يضحي بنفسه في سبيل مثله الأعلى و خاصة أمام أجواء الحصار الاقتصادي المفروض على مجتمعه أجنبيا و الحصار السياسي المفروض عليه وطنيا *.

إن الإقرار بانعدام الرغبة الروحية للإشباع الفكري أي فهم منطق السياسة الإقتصادية و البحث عن الثروة التي لا تزول و المتمثلة في بناء الإنسان أو إعادة تشكيل عقله السياسي و الاقتصادي ، تماشيا مع التغيرات الاقتصادية الدولية .لم يحدث هذا عندنا ، فقد أكد عمار بلحسن في هذا السياق " أن هناك إجماع شبه كلي على غياب وعدم وجود انتلجانسيا جزائرية كمجموعة إجتماعية مثقفة ومنظمة ، مستقلة ذاتيا و متجذرة في التاريخ الجزائري و التراث الثقافي الوطني و العربي ، منتجة لخطابات فكرية نقدية ، معبرة و منسقة و منظرة لممارسات مجتمعية مختلفة[19]. هكذا فان حكماء المدينة (المثقفون الشرعيون) حكام لا يحكمون ولا يساهمون في التحول الاجتماعي الجاري لأن إشراكهم أمرا خطرا آنذاك، يناقض مصلحة القيادة الوطنية في المدى البعيد و فضل هؤلاء الذين تتوفر فيهم شروط الأعلمية بقضايا مجتمعهم آنذاك سلاما مهينا على الدخول في معركة فكرية " لأن احتمالات النصر لعالم الأفكار ضئيلة جدا في مجتمع لا زال ملغما بمضايقات الدوغمائية و مفارقات عصبوية مطلقة " [20] في كل معانيها و تجلياتها : الفكر الواحد / الرجل الواحد / الحزب الواحد /.... ويذهب المثقف الجزائري بذلك في التيار الجارف الذي يسبح فيه كل مثقف عربي لا زال يعتبر نفسه غير مسؤول عن تغيير الأوضاع في بلاده ، و إذا المثقف سئل بأي ذنب قتل ، فإن مقاربة المؤامرة و الإسقاط (كل شيء ضدي و ما أنا إلا ضحية) ،هي النموذج الأقرب لحالة مثقف لا منتمي في نسيج التحول الإجتماعي الجاري في الجزائر...

كمون صوت المثقف الجزائري في هذا الوضع دافعا حساسا لتفجير المتناقضات و الإضطرابات . كان على المثقف الجزائري، أن يتنفس الصعداء. كان لزاما الإرتقاء بهذا الكمون إلى مستوى التعدد الفكري و الحياة المفهمية و التثقيفية ،إلى هنا كان الإعلان الرسمي عن تغلغل مفهوم المجتمع المدني (بقوى الضغط العنف، المعارضة) والذي أصبح ظله ثقيلا جدا لدى هؤلاء المتعاطفين مع النظام البائد الذين أوهمو الجماهير بأنها تنعم في اقتصاد يكافح الندرة لكن هذا لم يعد مجديا الآن. إذن يبدو أن ديمقراطية عصر الأسود قد أفل نجمه و سوف تشهد الجزائر عصرا ديمقراطيا جديدا موسومه عهد الديمقراطية والصرح المؤسساتي و ليس أدل على مجراه في الحياة المجتمعية إلا المعطيات التالية :

– حجم الإنفلات السياسي في الجزائر (ظاهرة الفيس) مما يدل على أن جهاز الدولة أصبح يسير برأسين .

– عمق الإختلافات السياسية و التناقضات الأيديولوجية و الفكرية و الثقافية في أوساط المجتمع .

– توطن ظاهرة الإقتصاديات غير الرسمية في الجزائر و عمق انتشار التهريب"[21]

لقد أصبحت هذه المعطيات علامة أكيدة في إهتراء نظام الدولة و تآكل قاداتها و مؤسساتها لقد تراجعت الشرعية الوطنية و فقدت مفعولها الكيميائي في الترصيص الصحي للمجتمع الجزائري لتستبدلها الفئات الشابة بشرعية من طراز ديني لكنها شديدة التسيس تنظمت كجماعات بديلة معارضة ، سمت نفسها عشية ميلادها من رحم انتفاضة أكتوبر88 الجماعات الإسلامية وأصبحت هي النسق الثقافي المنتظر؟!، والذي ربما تعلق عليه بعض الفئات الإجتماعية من المحبطين و المحرومين و المهمشين الذين اصطفوا تدريجيا قبالة المشروع الوطني الإشتراكي بآمال عريض .أما بالنسبة لدائرة المثقفين في صلتهم بهذا الوضع ، فقد أصبحت حالتهم النفسية سيئة جدا و جسم الدولة يتقطع أمامهم قطعا قطعا إذن النخبة المثقفة /المثقف الجزائري ما العمل؟

– إن بعض المثقفين من يعتبر المعركة سياسية و هو كمثقف ينبغي أن يبعد نفسه عن السياسة.

– بعضهم يعتبرها معركة الباحثين عن الخبز و هو ضمن خبزه غير مكلف بأن يتعب نفسه في البحث عن خبز الآخرين .

– بعضهم يعتبرها معركة ميؤوس من نتيجتها و حري به ألا يشغل نفسه بعملية يائسة

– بعضهم مشغول البال بقصة حالمة أو كتاب رائع أو نظرية مغرية و هو في ذلك بعيد كل البعد أن يشغل نفسه بموضوع آني لا يحقق حلما و لا روعة و لا إغراءا .

– بعضهم ينبهر كما تنبهر الجماعات المصفقة لا يستخدم علمه و لا عقله حينما تصفق يداه و لكنه محمول على التصفيق بنفس القوة السحرية التي حمله الآخرون بها ، دون وعي .

– بعضهم لا ينبذ الموضوع و لكنه يقف منه موقف المتفرج من بعيد يصفق تحت الجلباب لكل من سجل إصابة و يلعن بشفتيه الخجولتين كل من سجل إصابة تخالف القانون"[22]

من المؤكد أن هذه المواقف هي نتيجة حتمية لإخفاقات الدولة الوطنية في سد الفجوة الطبيعية لمرحلة الهدم و البناء الاجتماعي وطالما أن وصمة العار التي لفت عقل الزعماء و القادة هي إلغاء المسألة الثقافية ، فقد امتد سرطان التصدع إلى المرجعية – الدين – فكانت منظومة الفيس قبالة لدى بعض الإتجاهات التي أصبحت تقدم فعلا مجتمعيا مسؤولا و لا يساورها الخوف على وجودها و بقاءها " [23]، و كانت نتيجة ذلك أن تقوقع المثقفين الجزائريين في مسارهم التقليدي – ثقافة الصمت – ثقافة المقهورين لأن الوضع الأمني السائد لا يسمح باستثارة مزيد من القلق وحتى أولئك الذين كان لهم حسا مرهفا و ما أكثرهم من المثقفين المعارضين انضموا إلى جماعات الجهاد الإسلامي المسلح و عزفوا الحياة المدنية ، لأن المواطنة عندهم أ صبحت قطعة أثرية. و بدلا من أن تسير الأوضاع باتجاه الثقافة و الفعل المثقف ، حدث العكس ، فمن النقيض إلى النقيض ،كان شأن اللاثقافة و تجسيد رد الفعل في التجربة الجزائرية.

طالما أن الحوار هو السبيل الوحيد للتغيير الإيجابي و الفعال ؟ فيبدو أن بذور القلق بشأن الحوار وثقافة الإستنصار بدأت مع مؤشر القوة المتزايدة للبيروقراطيين والتكنوقراطيين" [24]، فكان لابد من ثقافة جديدة تتحرك وفق الإحساس بالمسؤولية تجاه هذا الوطن و العمل على أساس المصلحة الأخلاقية للبلاد . كما أن القلق لا ينتهي إلا إذا

استحدث رجالات السياسة و الإقتصاد و الدين ... منهجية جديدة في التفكير السياسي و الإقتصادي وفق تصور جديد للأزمة تصورا يكون مؤهلا لإعطاء حلول فنية ، تعتبر ضرورية لكسر منطق العبء السياسي الذي تحمله الإقتصاد الوطني. و ظهور حركة الفيس آنذاك دليل قاطع على دخول المجتمع في مناورات لا حدود.. إذن ما المشروع الثقافي المنتظر لحقن الأزمة ومن يقوده وهل أنتجت أزمة المجتمع الجزائري مثقفون ؟

-3- مشروع المصالحة الوطنية *هذا اللغز الثقافي، همومه وعطاؤه : ثقافة سياسي أم ثقافة مثقف، ماذا غيرت وما لم تغير ؟

لقد علمنا التاريخ أن ليس كل من يقول خطابا مرتبا مصفوفا ظاهره معسول أصبح بالضرورة رجل المرحلة المناسب دون سواه وقد أقر علي شريعاتي في هذا السياق " ليس مهما أن تضع قدميك في تلك اللحظة في النادي الليلي أو خلف المحراب ؟ المهم أين تقف في ساعة الحق " [25] . إن الخطاب المفتقد هو الخطاب التوعوي الذي يهتم فيما يهتم باللامفكر فيه و اللامصرح عنه منذ زمن . خطاب يمكن أن يضيء خطوط الوحدة و التراص الإجتماعي باحتواء الخطاب المضاد مع الإنصات الواعي .

ولننطلق في رحاب هذه الثقافة المنتصرة *، التي أصبحت الماركة المسجلة في تاريخ الخصوصية الجزائرية ودون إسقاطات خارجية ، استهدفت تعقيل الوضع و حقن التناقضات الداخلية و أعتبرها ثقافة مثقفة ،لأنها بدأت من هذه النقطة أي قبل أن نشرع في مناقشة الآخر، أن نناقش الأنا – الخصوصية الجزائرية – أولا في كبريائها وحاجاتها وتعقداتها .و ما يبعث إلى التفاؤل هو أن رحم الخصوصية الجزائرية استطاعت إنجاب هذا الوعي النوعي الذي يقول " أن على المثقف الحقيقي أن ينحاز لمجتمعه و لأمته و لمعاناة أهله و عشيرته و أهل قريته و مدينته من الجماعة الوطنية العامة ، حتى و لو كره موقفه ذلك رفاقه في الحزب أو الفئة الإجتماعية أو النادي أو الطائفة الضيقة التي ينتمي إليها "[26]. و هكذا يبدو أن الوعي الإقتصادي المحكوم بأطر نفسية ، ثقافية تجعله يعمل على تحقيق الديناميكا الإقتصادية كما يقول مالك بن ني " [27] " كما أن السبيل الوحيد الذي تتقدم به الأمم هو النهضة و النهضة هي الإرتقاء و السمو الفكري " [28] فلقد أمدت ثقافة المصالحة مفهومية تقول أن الفكر طريقة مثلى لتجنب الإنحراف السياسي المشوه للإنماء الإقتصادي الإجتماعي و النافث لسموم التبعية.

لقد ظهر أن المفاتيح عندنا أولا و أخيرا ، فلنبني مختبراتنا و نشغل عقولنا و نصنع سلاحنا و ماكناتنا أو لنشغل عقولنا لكي تعمل كما أراد الإسلام لها أن تعمل .... و هكذا توالت على مرايا التنمية الاجتماعية في الجزائر ، سنوات ربيع الذهب *التي سلبت عقول الجزائيين فاستحوذت على خيالهم و طموحهم سيما أنها رزقت بنعمة – قيادة وطنية –أعلنت قيما جد ايجابية و في ميدان أوسع مما يقيس مختلف الشرائح الإجتماعية فلقد تحققت برامج الإنعاش التنموي وفي عدة مستويات.

خطاب المصالحة الوطنية , فكر نوعي كما سبق و أن ذكرنا أتى في ظرفه و توقيته بالنسبة للوضع الأمني و التنموي في البلاد على حد سواء , هي نقلة خاصة في خصوصية المجتمع الجزائري ، طفرت به من ثقافة القهر و الكمون إلى ثقافة التثاقف و التفكر والحوار لذلك اصطلحنا على تشخيصها بالثقافة السعيدة و هي أصل من أصول النظم الديمقراطية العربية المعاصرة فعملا بحديث عمر بن الخطاب " الرأي الواحد كالخيط السحيل – و هو الحبل على قوة واحدة – و الرأيان كالخيطين و الثلاثة آراء لا تنقطع" [29]، فكان لا بد من اشراك طرف آخر لتنظيم الحياة السياسية و الإجتماعية . كان لا بد من تجسير الفجوة الديمقراطية بين السياسي والمثقف... إن الأمر أصبح يتعلق بتقديم أهل الخبرة والأعلمية قبل أهل الثقة و ارتأى الوضع أن يرى في الحكومة الجزائرية الحديثة – حكومة خبراء – أو مجبرة أن تخضع للخبراء و المثقفين.إذ أن موضوعات مثل ، المخدرات ، الحرقة ، الإنتحار الإرادي ، إصلاح المدرسة والجامعة ، إصلاح العدالة وتعديل الدستور ، عمالة الأطفال ..... و غيرها من الموضوعات،لا يستطيع المسؤول العادي في الجهاز التنفيذي أو حتى رئيس الدولة ... أن يفهم فيها بالقدر المعرفي و المفهمي الكافي .

فإذا ما أريد للمثقفين أن يعملوا فلا بد للمثقفين أن يعلنو عن بيانهم الخاص ... فما جاء هؤلاء لتخفى مكلماتهم الثقافية في المعاهد و الجامعات أو لينحنوا على مختبراتهم يكتبون و يبحثون . إذن ثقافة سياسي أم ثقافة مثقف في الجزائر .... ماذا غيرت وما ذا لم تغير ؟

قد أقسو على نفسي لأقول أن دور المثقف الجزائري – المثقف الشرعي – ترهل وهزل في دائرة هذه المكلمات الثقافية ... حيث يمكن للمتأمل السوسيولوجي – الناقد – أن

يصنفها تراتبا طبقيا أرستقراطيا ، مكلمات المثقف الجزائري اليوم كثيرة النفقات ، قليلة البركات ، مضيعة للوقت ، منعشة للقاءات والمجاملات ... لست أدري حقيقة ما الحكمة في تكاثر هذه المكلمات ، على الرغم من ضعف مردودها وتأثيراتها العملية لدى صناع القرار . فهل الأمر يتعلق بقتل المشكلة بحثا نظريا في أوساط المثقفين الشرعيين ،أم هو تبرير للعجز عن الحركة والإنجاز ... بعبارة أوضح إذا أردت – قتل موضوع – فعليك أن تحيله إلى مثقفون ،لقد تم التعاقد على مكلمات مكلفة جدا ، ونتساءل ما كان جدواها ؟ ماذا غيرت وماذا لم تغير ؟ إن ما يؤسفنا حقا هو أن يغدو السعي إلى تنظيم هذا اللون من الأنشطة تحت مظلة البحث العلمي ودعوى الحوار والتثاقف مشغلة لكثير من مثقفينا و رمزا لتأكيد الذات في الأوساط الإجتماعية والأكاديمية . لقد قيل " كان الرجل من أهل العلم ينفق المال على علمه والآن أصبح الرجل يكسب بعلمه مالا وكان يرى على ماصاحب العلم زيادة في باطنه وظاهره واليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر[30]. إذن المثقف الجزائري .... إلى أين ؟

4-المثقف الجزائري ... هموم واهتمامات

إن وضعية النخبة المثقفة في إطار هذا اللغز : الثقافة السعيدة الذي أوضحنا قسماته لا يخرج عن احتمالات أربع : المثقفون في الخصوصية الجزائرية إما ناجحون أو فاشلون إما مثمرون أو عقيمون كما يقول كارل بوبر. فكيف هو الحال إذن بعيدا عن الأحكام التعسفية بالنظر للوضع الراهن الذي أصبح فيه المثقف مشغولا بنفس ما يشغل سواد الناس ؟ لأن المثقف في نهاية المطاف رجل اجتماعي ، اقتصادي ، يكافح من أجل البقاء و كم خضع الكثير من مثقفينا لمغالطات اقتصادية و حسابية حول التكلفة و الربح وفائض القيمة في انتاجاتهم الفكرية و العرفانية ، وعليه فإن اختزال االفعل الثقافي في مجرد كونه سلعة تخضع لقوانين السوق ، يربك الثقافة في حد ذاتها . إذ يمكن للمرء أن يلاحظ حالة بعض من ينتسبون إلى دائرة الثقافة . و هم في حقيقة الأمر أشباه حيطيست يتعاملون مع محيطهم بإيماءات وإشارات بسيطة أقرب إلى المنعكسات الشرطية (أعطني أجرا أعطيك فكرا و ثقافة وإبداعا) .بإمكان المرء أن يلاحظ أيضا واقع الجامعة الجزائرية اليوم وما تخوضه من صراعات و مخاضات ، حتى انطلقت اليوم المآخذ و

العيوب و الأخطاء و أصبحت الجامعة في قفص الإتهام ، فما سر هذه العلاقة المتأزمة جامعة – مثقف يا ترى ؟

إذا كنا قد سلمنا بحقيقة المثقف الأجير والمثقف المقاول و هي الصورة المطابقة لحفنة المثقفون الجامعيون الذين يمتهنون مهنة التدريس نافذة لعملهم الفكري ونشاطهم الثقافي، أصبحوا هم أنفسهم يحتقرون النشاط الثقافي داخل الجامعة و خارجها فرأوا فيه عقبة أو كابحا يحول دون إرضاء حاجات المثقف الأساسية ، فهو كانسان اقتصادي اجتماعي لا بد أن يوسع مجاله الحيوي ، وأخص المجال المادي ، لأن المادة إن وجدت لا تسأل كثيرا عن مجال الحرية الآكاديمية والإبداع الفكري والثقافي في زماننا .

هكذا أصبحت علاقة المثقف بالظاهرة التثقيفية ، علاقة مادية "(*) بالأساس تتأثر باستمرار بكل ما تتأثر به علاقة من هذه الطبيعة من ثغرات و مفارقات، إذ بإمكان المرء أن يلاحظ رغم الحوافز المبرمجة من أجل تشجيع الظاهرة التثقيفية في الجزائر فإننا نلاحظ وجود دلالات ثقافية من دون مدلولات مجتمعية. يمكننا أن نلاحظ تراجعا مخيفا لمنظومة القيم و الأخلاق. و لننظر إلى الجزائريين الذين اعتنقوا مذهب التطرف : كالتنظيمات الإرهابية و الحراقة و مروجي المخدرات و المهربين... ، هؤلاء أينما وجدوا و حيثما كانوا يبدو أنهم ظواهر مسبوقة تمت بشكل منظم و يكون عندئذ سؤال الناس للثقافة و أهلها ماذا قدمت ؟ و لماذا تأخرت أيها المثقف . ليكتشف المثقف الجزائري نفسه مرة أخرى أنه مثقف لا منتمي إجتماعيا . وتتحطم عنده حاسة النقد والتذوق والتثاقف خصوصا بعد أ ن تجاذبته عدوى العولمة ومضاعفاتها المعروفة ، حتى تخللت حقل الثقافة الجزائرية اليوم ثقافات متعددة ومتشظية نستطيع في هذه المقاربة المعرفية أن نصنفها إلى :

1– ثقافة مستنسخة ، تحمل هموم واهتمامات ولا تفكر خارج ما هو مفكر فيه من قبل

2– ثقافة منشقة تسير برأسين منشغلة بعملية الجرح والتعديل فيما ينبغي وما لا ينبغي .

3– ثقافة مقاولة تجيد ترويج مشروعاتها البحثية وبوتيكاتها الفكرية في السوق الثقافي مقابل عمولة مالية مناسبة .

4– ثقافة زئبقية / مراوغة تؤيد الأوضاع الراهنة وفق سياسة تفاوضية من أجل تمرير مشروعها ومصالحها .

-5 ثقافة إسلامية استسلمت إلى اليأس والضياع فوجدت المرجعية الدينية حليفا ونصيرا .
-6 ثقافة كونية هي دائما في حالة جاهزية لتفصيل مشروعها بشعار – حوار الحضارات – ونفي علاقة الضدية بين تجربة وطنية وأخرى كوكبية .

إن هذه الطروحات تدعونا للتفكير مليا في حمى ظاهرة النخبة المثقفة في الجزائر وخصوصا تلك التي تأخذ مجراها في الجامعة ، في سياق انشغلت فيه ببناء قصور وعمور من الكارتون وسط واقع اجتماعي – رث – فكانت صيغة المثقف اللامنتمي إجتماعيا أصدق وصف للوضع القائم . إننا بحاجة اليوم إلى خطاب ثقافي مزروع في أحشائه ما يرغبه – المثقف الناقد – من بروق ورعود ومتفجرات في هذا الزمن ، زمن ثقافة الصمت ، ثقافة القهر، المسبوق بحالة الكمون والتستر ،.. من أجل تجاوز الراهن والعبور نحوى المستقبل .

الهوامش:

[1] سترومبرج رونالد ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، ترجمة أحمد الشيباني ، دار القاريء العربي، القاهرة ، 1994، ط3، ص.,288

[2] جورج غور فيتش ، الأطر الاجتماعية للمعرفة ، ترجمة خليل أحمد خليل، الدار الجامعية للنشر، بيروت ،.ص56. 1981

[3] المرجع نفسه ، ص56.

[4] ميشل فاديه، االأيديولوجيا ، وثائق في الأصول الفلسفية ، ترجمة أمينة رشيد و سيد البحراوي ، بيروت ، دار التنوير ، 1982، ص109.

[5] نبيل رمزي ، علم الإجتماع المعرفة ، الجزء الأول ، دار الفكر الجامعي ، الإسكندرية ،1993، ط1، ص 38.

[6] إيميل دوركايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة محمود قاسم ، مكتبة النهضة العربية، القاهرة :1950، ص 34.

[7] نبيل رمزي ، مرجع سابق ، ص 48.

[8] بيير أنسار ، الأيديولوجيات و المنازعات و السلطة ، ترجمة إحسان الحسيني ، وزارة الثقافة ، دمشق، 1984، ص 72

(9) كارل ماركس وفريديريك انجلز ، الأيديولوجيا الألمانية ، ترجمة فؤاد أيوب ، دا ر دمشق، دمشق، 1976، ص 30

(10) جورج ريتزر ، رواد علم الاجتماع ، ترجمة مصطفى خلف عبد الجواد و آخرون ، دار المعرفة الدجامعية الاسكندرية ، 1993 ، ط1 ،ص 78.

(11) جماعة من الأساتذة السوفيات ، موجز تاريخ الفلسفة ، ترجمة توفيق سلوم ، دار الفارابي بيروت ، 1989، ط1، ص ص 398-399

(12) جون بول سارتر، دفاع عن المثقفين، الترجمة العربية ، دار الآداب، بيروت،1973، ص ص 12-13.

(13) كمال المنوافي « الثقافة السياسية و أزمة الديمقراطية في الوطن العربي » الطاهر لبيب وآخرون، الثقافة و المثقف في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1995 ، ص 170

(14) Max weber , economy and society , ed guenther rothand claus witich , university of california , press , Berkeley ,les angles , London , 1978 , vol 11 , pp 48-50

(15) Selected works of maotsetung , vol , 11 foreign language press peking , 1956 , pp,245,238

(16) alven gouldner , the coming crisis of western sociology , basic boo 1979 p 336

(17) سليم الحص ، ندوة المستقبل العربي " المثقف العربي و مهامه الراهنة" ، المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،، ماي ،1983العدد 51، ص 110.

(18) ناصف يوسف«التبعية الاقتصادية و أثرها في صنع القرار السياسي » دراسة حالة الجزائر- مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ،1995 ،العدد 19،ص 118.

(19) عمار بلحسن ، انتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر ؟ ملاحظات من أجل حصيلة نقدية ، منشورات الثقافة والتربية في المغرب العربي ،مركز جمع الوثائق للعلوم الإنسانية ، وهران ، 1985، ص101

(20) علي عقلة عرسان ، المثقف العربي و المتغيرات ، دراسة منشورة ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ،1995 ،ص 234

(21) المنصف وناس « الدولة الوطنية و المجتمع المدني في الجزائر » ، محاولة في قراءة انتفاضة اكتوبر 1988 ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 1995، ع 191 ، ص 109 .

(22) عبد الكريم غلاب ، الثقافة و الفكر في مواجهة التحدي ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1968 ، ص ص 48 ،49

(23) لقد أصبح الفيس استراتيجية عنف تحفزه بواعث عقائدية و أيديولوجية في الجزائر مع التأكيد أن الفيس ارتبط بمفهوم الارهاب الذي نفت تشريعات غالبية الدول و الأمم المتدينة توصيفه بالجريمة ، أنظر في المفهوم نعوم تشومسكي الإرهاب الدولي : الأسطورة والواقع ، ترجمة لبنى صبري ، منشورات سينا ،القاهرة ، 1990، ص ص 56،57

(24) يوسف عبد الله صايغ ، اقتصادات العالم العربي– التنمية منذ 1945 – ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، د ت ، ج 3 ، ص 415 .

* المصالحة الوطنية التي زرع بذورها الرئيس الأسبق ليمين زروال ليقوم عبد العزيز بوتفليقة الى ترجمته عمليا و ممارسته باسم المصالحة الوطنية.

(25) محمد صادق الحسيني " من هو المثقف الحقيقي " مرجع جدلية الحوار في الثقافة و النقد، دار الآداب ، بيروت 1995، ص 75.

* انظر في هذا المفهوم ، محمد سعيد طالب ، الثقافة المقهورة و الثقافة المنتصرة ، الدار الوطنية الجديدة 2000 ، دمشق ، ص 90.

(26) محمد صادق الحسيني " من هو المثقف الحقيقي " ، مرجع سابق ، ص 75.

(27) مالك بن نبي ، المسلم في عالم الإقتصاد، دار الفكر ، دم، دت ، ص 81 .

(28) محمود الخالدي ، التفكير بداية الطريق إلى نهضة الأمة الإسلامية ، شركة الشهاب ،دم، دت ص 81.

* وكالات دعم الشباب و البطالين (CNAC- ENJEM- ENSEJ) برنامج الإدماج المهني الذي أصدرته وزارة العمل و التشغيل و التضامن وفق المرسوم رقم 127/08 الصادر في 2008/04/30 و الذي يضم أكثر من 105 ألف ملف من طالبي الإدماج المهني و هو لازال قيد التنفيذ.

(29) علي محمد لاغا، الشورى و الديمقراطية ، المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983، ص 98.

(30) حامد عمار : الحادي عشر من سبتمبر وتداعياته التربوية والثقافية في الوطن العربي ، الدار المصرية اللبنانية ، 2004، ط1 ، ص 252.

(*)بغداد .م . " الحكومة تقرر اعفاءات جبائية لصالح قطاع الثقافة – تشمل الكتاب و المتاحف – يومية الشروق الجزائرية ، بتاريخ 16 اوت 2008 ،العدد 2380، ص 18.